مفهوم الحضارة عند ابن خلدون وأبعاده

أ. عيساوة وهيبة
قسم علم الاجتماع والديمغرافيا
جامعة الأغواط

المقدمة

لا يمكن أن نتحدث عن مفهوم التحضر والحضارة عند ابن خلدون دون الحديث عن الصراع الحضاري الذي يجري اليوم، والتي تعيشه أمتنا بكل قوة.

فلقد أصحبت الحضارة عند الإنسان العربي المسلم مدينة من العمارات ومن البترول والسيارات الفخمة، وأصبحت الثقافة عنده فلكلورا ومسابقات ثقافية سخيفة وأشرطة فيديو، وأضحت المدنية عنده طرق ومطارات، جسور مرصفة وأضواء ملونة.

إن تصور الحضارة والثقافة والمدنية بهذا المعنى ليس تصورا ناقصا فحسب، بل هو تصور مزيف ومضلل، أدى بنا إلى سراب حضاري وقد كانت نتيجته مؤلمة، إن هذا المفهوم السرابي المزيف قد وجد مؤسسات يمارس من خلالها نشاطه بحماسة في شكل إيديولوجيات تعاقبت.

فالحضارة التي حاولنا بناءها لم تحقق لنا شيئا ذو قيمة تذكر، وإنما الذي حققناه هو تراكم مشاكلنا وازدياد تناقضاتنا، وبكلمة جامعة حققنا الأزمة الحضارية (4).

إننا هنا لسنا بصدد إصدار أحكام تقييمية تشاؤمية، وإنما نحن بصدد قراءة واقع اجتماعي حضاري وفق نسق قيمي معين ننتمي إليه، وهو علاقة التبعية الحضارية بكل أبعادها ضمن دورة الحضارة التي تدور الآن حول محور واشنطن – طوكيو.

وفي ضوء هذا المعنى، يمكن أن نصوغ إشكالية "الحضارة " عند ابن خلدون باعتباره من الأوائل الذين تحدثوا عن تعاقب الحضارات، ومن الذين درسوا التـاريخ من أبعاده الحضارية، وإننا لن نكتفي بابن خلدون فقط في تحليل المجتمع الحضاري، إنما سننطلق من فكره حتى نعرف ميكانزمات انتقال الحضارة من طور إلـى طـور، وأسباب سقوطها، وحتى نتفادى الإفراط في التغني بالماضي التليد.

معنى الحضارة

إن معنى الحضارة قديم قدم التاريخ الحضاري، فلا حضارة بدون إنسان، ولا إنسان بدون تاريخ، ولقد عرفت الشعوب والأمم الحضارة منذ القدم وعبـرت عـن مظاهرها من خلال أشكال وألوان مادية ومعنوية متعددة، تختلف من مجتمع لآخـر ومن مكان لآخر ومن عصر لآخر، لأن " الحضارة هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته، سواء كان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، سواء أكانت الثمرة مادية أم معنوية"(2، ص58).

فكلمة " حضارة " كان لها استعمال شائع فـي أدبيـات التـاريخ وعمومياتـه كوصف تاريخي لمراحل تاريخية وليس كظاهرة اجتماعية وتاريخية، وقـد كـان أول تناول علمي لها وليد القرن التاسع عشر، عندما ذكر لفـظ "حـضارة" فـي قـاموس الأكاديمية الفرنسية ومعناها "عكس توحش"(2، ص56)، إذ بدأ هذا المفهـوم يعـرف على المستوى الاجتماعي واللغوي والفكري في المجـامع والقـواميس واهـتم بهـا اللغويون والمفكرون.

غير أن الحضارة كمفهوم لها أبعاد متعددة وتعاريف مختلفة تختلف باختلاف الأطر التصورية والمعرفية لكل باحث، وإن كان هناك خلط كبير في اسـتعمال هـذا المفهوم والمفاهيم الوثيقة الصلة به كالثقافة والمدنية.

فقد جاء في " لسان العرب " في مادة "حضر " بفتح الحاء أو كسرها تعنـي الإقامة في الحضر أي في المدن والقرى بخلاف البداوة، في معجـم مـتن اللغـة "

الحضارة هي ضد البداوة، وجاء أيضا في المعجم " الوسيط أن الحضارة تعني الإقامة في الحضر وهي من مظاهر الرقي العلمي والفني الأدبي والاجتماعي في الحضر.

فالحضارة هي انتقال من حياة البداوة إلى حياة الحضر، وهي المرحلة المتقدمة للمجتمع الإنساني، وبدأت بقيام الجماعة البشرية المنظمة حين يتكون لديها الضمير الاجتماعي، وهو ادراك الفرد لذاته في علاقته بالآخرين، وحين تستقر الجماعة وتبدأ في تنظيم حياتها وعلاقة أفرادها ببعضهم البعض ينشأ المجتمع المتحضر، والحضارة بمعناها العام هي النمو والتقدم بحيث يحقق النمو والتقدم المستوى الأعلى لحضارة العصر.

وليست الحضارة هي التقدم التكنولوجي فحسب، وإنما هي الارتقاء العقلي والإيمان بالقيم الإنسانية لخير الإنسان وسعادته، والحضارة بلفظ آخر – هي المدنية – وتعني التمدن والتحضر.

أهم نظريات الحضارة

كما اختلف الفلاسفة المفكرون في وضع تعريف واحد للحضارة، كان باختلافهم أيضا في أفكارهم وتناقضها حول نظريات الحضارة:

- أولها نظرية البيئة (2، ص ص62 – 64)، التي تعود إلى فلاسفة اليونان الذين قالوا بأن للبيئة آثار في تكوين الصورة البدنية والعقلية للبشر، من حيث السلوك، العمل، النشاط والغذاء، بل حتى من حيث الشكل واللون و المظهر. إلا أنه تبقى أهمية البيئة نسبية من حيث الدور الذي تقوم به في البناء الحضاري، لأن دراسة التاريخ تؤكد أن الحضارة ظهرت في ظروف بيئة وغابت أيضا في ظروف بيئية أخرى مشابهة لها، بل ظهرت في البيئة الواحدة واختفت فيها.
- ثانيها النظرية الدينية (2، ص ص64 – 66) والتي تعود إلى حكماء الصين والهند ثم تبناها مفكرون آخرون من العصر الحديث، بإرجاع للدين الدور الأساسي في بناء أي حضارة.

- وثالثها النظرية المادية (2، ص ص67 - 70)، التي تجمع بين المادية الدياليكتية، المادية التاريخية والنظرية الاقتصادية، باعتبار الاقتصاد القاعدة الأساسية التي يبنى عليها النسيج الاجتماعي.
- ورابعها نظرية الجنس (2، ص ص71 - 74)، التي تمتد جذورها إلى الإغريق والرومان، وكذلك الصينيون والهنود، إذ ترى أن هناك جنس بشري معين له خصائص خُلقية وخَلقية مفضل على جنس آخر، وحده القادر على صنع الحضارة، وكان انبعاث هذه النظرية بقوة من جديد مع موجة الاستعمار ووجدت لها مساندة على المستوى الفكري والسياسي.
- وخامسها نظرية التحدي والاستجابة (2، ص ص75 - 77)، والتي ترجع إلى المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي " أرنولد تويمبي " الذي درس وحلل إحدى وعشرين حضارة درسها بدراسة شاملة و مقارنة، وتوصل إلى أن حركة التاريخ لا تعود إلى البيئة الجغرافية أو إلى الأجناس، بل هي موقف الجماعة مما يقابلها من تحديات ونوع ردها عليها أو استجاباتها لها، ويرى أن هذه التحديات تكون إما تحدي لبيئة جغرافية، وهذا ما يراه عند بعض الحضارات مثل المصرية، السومرية و الصينية وغيرها، أو يكون عامل التحدي بشريا، حيث سيطرت أقلية بشرية على المجتمعات التي تتصل بها صلة الجنس مما جعل الحضارة المنهارة تستجيب للتحدي وتؤسس حضارة جديدة، ويرى تويمبي أن " وعي الإنسان أو بما يسمى الضمير يعتبر تاريخ بداية حضارة الإنسان، أو بداية وجوده كمخلوق متميز بنفسه عن سائر الحيوان، قادر على صنع الحضارة ومدرك لبعض القيم الإنسانية " (2، ص59) فالحضارة تبدأ في الإنسان مع بداية تحضره، وتحضر الإنسان لنفسه يكون قبل أن يحضر محيطه وغيره، فتوينبي قام بالبحث عن معرفة البداية الأولى للحضارة وتاريخ ظهورها.

إن تويمبي يقر أن الاستجابة والتحدي لا يكونان قانونا مطلقا يأتي نتيجة إيجابية في كل الأحوال، إذ يشترط أن يكون التحدي ممكنا وله مدى معينا يمكن تحديه وإلا يعجز الجهد البشري عليه.

رغم أن مكتبة الفكر الاجتماعي والفلسفي القديم والحديث تحتوي على حشد هائل من الأبحاث والدراسات المتعلقة بنظريات التفسير التاريخي والحضاري، غير أن هناك محاولات قليلة اهتمت بظاهرة الحضارة بالدقة والعمق، والتي تعتمد على التصور التاريخي الذي نبه إليه " رايت ميلز " في كتابه الخيال السوسيولوجي بأن كل علم اجتماع أو كل دراسة اجتماعية تتطلب مجالا من التصور التاريخي واستفادة كاملة من المادة التاريخية.

فالمحاولات التنظيرية حاولت تحديد الإنتظامات التي تحكم نمو الحضارات وأصولها، من خلال معرفة القوانين التي تتحكم في الحركة التاريخية قصد الوصول إلى تعميمات عامة وشاملة لمسار التاريخ الإنساني وهناك اتجاهين رئيسيين :

1 - اتجاه الحركة الصاعدة وهو الاتجاه الذي يرى أن التقدم هو عملية تراكمية، وأن الانتقال من حالة لأخرى أفضل منها.

2 - اتجاه الحركة التعاقبية والدورية : أو اتجاه مراحل التطور المعروفة نجد ضمن هذه هذا الاتجاه ابن خلدون وهو أول من إكتشف منطق الدورة التاريخية حول نظريته الدولة، لكن ما يميز نظريته هي أن الدورة مغلقة تبدأ ببداوة - عصبية قوية - فالتحضر فالترف ثم التدهور وهكذا، فهي دورة تعيد نفسها بنفس الطريقة.

وإن كان مفهوم الدورة التعاقبية عنده مرتبط بمفهوم عصره وهو " الدولة " كنتاج حضاري لا الحضارة بمفهومها الواسع التي لا تعني العمران البشري ككل، وينتمي إلى هذا الاتجاه جون أرنولد توينبي، مالك بن نبي، لكن هذه الظاهرة الدورية عند هؤلاء ظاهرة مستمرة ومفتوحة.

مفهوم الحضارة عند ابن خلدون

إن علم العمران الذي توصل إليه ابن خلدون يهدف في أساسه إلى تفسير التاريخ والكشف عن حقيقته السيرورة التاريخية، والشروط التي توجهها والعوامل التي تؤثر فيها، ومن خلال الدراسة المعمقة للدولة وتتبع أطوراها وما يصاحبها من تطورات، وما يمتاز به كل طور من خصائص، حاول كذلك أن يكشف قوانين وعلل حركتها، فغاص في عمق السيرورة الاجتماعية التاريخية متأملا الظاهرة الحضارية وحركتها، مستنبطا لأهم الأسباب والقوانين الكامنة وراء كل حركة أو كل ظاهرة تاريخية أو اجتماعية تؤدي في النهاية إلى نتيجة يراها حتمية ومصيرية. وفي ظل هذا كانت نظريته المعروفة بنظرية التعاقب الدوري للحضارة، والتي تجعل من الحضارة كائنا حيا يشبه الإنسان في مراحل حياته الثلاثة، تتحرك في نظام دائري وفي تعاقب دوري بين النشأة والازدهار ثم الانحطاط، هي دورة مبنية على التناقض بين العصبية والملك، ثم الملك يهدم العصبية، وهدم العصبية يؤدي إلى هدم الملك.

عرف ابن خلدون الحضارة كظاهرة اجتماعية تاريخية هي "التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أوالآنية ولسائر أحوال المنزل ..." (8، ص125).

فهي الوصول إلى منتهى التطور الثقافي الشخصي المحلي للجماعة كما يرى "أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده " فالحضارة هي نهاية العمران (8، ص124).

وإن كنا نجده يعبر عنها تارة بالدولة وتارة بالحضارة، وتارة أخرى بالعمران، يرجع هذا إلى عدم الدقة في استعمال لفظ " حضارة " وهذا يرجع إلى الفارق الزمني إذ كان أسير ألفاظ عصره.

فالحضارة عند ابن خلدون تتعاقب على الأمم في ثلاثة أطوار، وبهذه الأطوار يعبر عن مفهومه للنوعية، فكل طور أو نوع ينمو و يولد نوعا آخر يختلف عن الأول جذريا من حيث الحجم و الماهية،" وأن العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمرا محسوسا ..." (8، ص125).

يتضح مفهوم الحضارة عند ابن خلدون أكثر وضوحا من خلال تتبع نظريته الحضارية أو التعاقب الدوري،أو بما يسمى بأعمار الحضارة، إذ يعتبر المؤرخ العربي الوحيد الذي درس الحضارة وتعرض لمراحلها الثلاثة وعرف ما بين البداوة والحضارة من صراع، وهو أول من قال بأن مسيرة التاريخ دورة لا تنتهي من البداوة إلى الحضارة، والحضارة مرحلة من مراحل تطور البداوة .

أعمار الحضارة

الحضارة ثلاثة أعمار مرحلية طبيعية، تتميز كل مرحلة عن المرحلة السابقة لها أو اللاحقة لها، وكل مرحلة لها عمرها وبدايتها، نهايتها وخصائصها.

المرحلة الأولى : هي مرحلة البناء والتأسيس للدولة وهي بمثابة مرحلة الميلاد، وجيل هذه المرحلة يحمل خصائص تجعله مؤهلا وقادرا على تأسيس الدولة وحمايتها، يمثله بمعيشة البدو في الصحاري و البراري في الجبال،و التتار في السهول وهؤلاء لا يخضعون لقوانين مدنية ولا تحكمهم سوى حاجاتهم وعاداتهم " لم يزالو على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة و الافتراس والاشتراك في المجد فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدهم مرهف وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلبون" (8، ص116).

المرحلة الثانية: هي مرحلة القوة والازدهار والمجد،و في هذه المرحلة تبلغ الحضارة أقصاها وتكون أرقى مراحلها وأوج قوتها ، فهي مرحلة الاستقرار في المدن والتمكن من العلوم والصناعات، والجيل المصاحب لهذه المرحلة يتمتع بالازدهار

الاقتصادي، التوسع والتفنن العمراني اللذان تحققا نتيجة السيطرة على الأقاليم وإخضاع بقية القبائل، و يتحول "من البداوة إلى الحضارة ومن الشطف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع" (8، ص116).

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الضعف والانحطاط ثم الانقراض، يسود فيها الضعف للدولة وللناس ، فيتجه هؤلاء إلى الراحة والانغماس في الترف والنعيم، والإسراف والشهوات وتغير إلى المناكر والتواضع عليها، وأوكلوا أمر الدفاع عنهم إلى واليهم وحامية حراستهم وألقوا السلاح ونزلو منزلة النساء " ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفننوه من النعيم و غضاوة العيش فيصيرون عيالا على الدولة..." (8، ص117) .

يرى ابن خلدون أن مراحل تحضر الدولة هي ذاتها عوامل تدهورها وأول هذه العوامل هي :

العصبية إذ بها " تكون الجماعة والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه..." (8، ص112). والعصبية عصبيتان : عصبية تجمعهم صلة الرحم والنسب وهي العصبية الكبرى، وهي قوية ويكون هذا حالها في بداية تأسيس الدولة، وبعد الاستقرار والانتقال من مرحلة التأسيس إلى مرحلة الحضارة تبدأ علاقة هذه العصبية في التفسخ والضعف بسبب الترف والقهر، والعصبية الصغرى تأتي بعد زوال العصبية الكبرى، وتتكون من بطانة الحاكم ومن مواليه وتتخذ منهم الدولة وحاكمها عصبية لها.

أما العامل الثاني هو الانفراد بالملك والمجد دون مشورة إذ أن صاحب الرياسة يطلب بطبعه الانفراد بالملك والمجد والطبيعة الحيوانية تدفعه إلى الكبر والأنفة، فيأنف من أن يشاركه أهل عصبيته فيدفعهم عن ملكه ويأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة حتى يصبحوا بعض أعدائه ، ويعاني الملك في ذلك بأشد مما

عان في إقامة الملك، إنه أمر في طبائع البشر لابد منه في كل الملوك على أن العامل الحاسم في ضعف الدولة هو الترف.

أما العامل الثالث فهو السبب الاقتصادي أو الترف، فهو إذا كان قد زاد من قوة الدولة في أولها، فهو أشد العوامل أثرا في ضعفها وانهيارها.

إن طبيعة الملك تقتضي الترف حيث النزوع إلى رقة الأحوال في الاهتمام بالمطعم، والملبس، الفرش والآنية وحيث تشيد المباني الحافلة والمصانع العظيمة، والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وحيث إجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل مع التوسع في الأعطيات على الصنائع والموالي وإدارة الأرزاق على الجند، ويزيد الانغماس في الترف والنعيم لا من جانب السلطان فحسب بل من جانب الرعية أيضا.

أما السبب الأخلاقي النفسي الذي يجعل الترف عامل هدم يؤدي إلى انهيار الدولة فمبعثه في رأي بن خلدون ما يلزم عن الترف من فساد خلقي، إذ أن عوائد الترف تؤدي إلى العكوف على الشهوات وكثير من مذمومات الخلق وتذهب عن أهل الحضر طباع الحشمة، فضلا على أن الترف يذهب خشونة البداوة ويضعف العصبية والبسالة، فهو مظهر لحياة السكون ودليل حيل النفس إلى الدنيا، والتكالب على تحصيل متعها حتى يتفشى الخلاف والتحاسد.

فالحضارة في نظر ابن خلدون هي التفنن في الترف والتكلف بالصنائع الكمالية، فإذا بلغت المدنية غايتها من العمران نشأ عن ذلك تفنن في الحاجات والشهوات وزيادة في النفقات وارتفاع في الأسعار، حتى يضطر كل فرد إلى التحايل لتحصل معاشه من وجهة ومن غير وجهة، فيزداد الكذب و المغامرة، الغش والسرقة، الفجور والربا، وسبب ذلك أن مكاسب الناس لا تفي بحاجاتهم .

ومعنى هذا أن الترف والنعيم إذا حصل لأهل العمران دعاهم إلى مذاهب الحضارة و التخلق بأخلاقها الفاسدة، ولابد في العمران البشري بدويا كان أو حضريا عمر محسوس، فهو كائن طبيعي يبدأ بالنمو حتى يصل درجة الوقوف، ثم ينتقل بعد

ذلك إلى مرحلة الانتقاص ويدخل في طور الهرم، ولابد في ذلك من سياسة ينتظم بها أمره سواء كان بدويا أو حضريا، لأن الحضارة تابعة للثروة والثروة تابعة للملك والدولة، فالمجتمع دون نظام لا يستطيع أن ينشئ حضارة ولا يوفر الأمن والاستقرار، ولأن الوعي السياسي هو مصدر الحضارة، وأن مشكل الحضارة ينتج من الوعي السياسي الذي يكون في بدايته ضمير فردي شخصي ليصبح بعده وعي اجتماعي.

إن ابن خلدون سبق عصره، فقد توصل إلى كثير من التفاصيل الدقيقة ذات الصلة بالحضارة ولم تعرف إلا حديثا بمفاهيم حديثة: مركز الحضارة (البداوة)، الأقلية القائدة (العصبية)، الإشعاع الحضاري (الدولة في مركزها).

ويمكن أن نذكر هذه التفاصيل في النقاط التالية:

- مركز الحضارة هو البداوة.
- أن البداوة أصل، وهي سابقة عن الحضارة و العمل فيها من أجل الضروري، والعمل في الحضارة من أجل الكمالي.
- الترف والغنى مظهر من مظاهر الحضارة وهو غاية العمران والترف كذلك مظهر من مظاهر الزوال وهو عادم للحضارة.
- إن الأجيال تتعاقب والعادات تتغير وتتطور من جيل إلى جيل وبالتالي تتغير وتتطور طبائع الأمم والشعوب تبعا لتطورها وهذا ما يسمى بقانون التطور.
- اكتشاف الأسباب الخفية للوقائع وعرض الأسباب الخلفية أي قانون السببية أو العلية وهو أن لكل حادث علة أو سببا يؤدي إلى وقوعه .
- دراسة الحضارة والكشف عن عناصرها ووظيفتها والقوى المحركة لوجودها ونموها استمرارها و تغيرها.
- كشف عن تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسة و الدينية والثقافية والنفسية في تطور الحركة الحضارية .

إن تحليل مفهوم الحضارة عند ابن خلدون من خلال الحالات الثلاث المتعاقبة لحياة المجتمع من البساطة إلى التعقيد من ناحية البنية والتركيب، ومن ناحية طريقة استغلال موارد البيئة الطبيعية وطرق العيش من ناحية أخرى،هو محاولة تفسير التطور الاجتماعي.

فالمرحلة الأولى: هي حالة البداوة تعني المرحلة غير المتحضرة، إذ هي مرحلة بدائية للمجتمعات البشرية تقوم على الزراعة البدائية، ويتسم أهلها بالخشونة والشجاعة ولا تعتريها أية مشاكل.

والمرحلة الثانية: هي مرحلة الرعي والزراعة المتقدمة، وهي تتطلب تقدما في المستوى الثقافي، تتميز بسمات حيث تتساوى الإيجابيات بالسلبيات.

أما المرحلة الثالثة: هي مرحلة الصناعة والتجارة و هي مرحلة متحضرة مرفهة، تختفي فيها الخشونة وتحل الليونة، وتسود المشكلات وتذهب الأخلاقيات.

فالتطور الاجتماعي يفترض أن أي مجتمع يسير في تاريخه من خلال مراحل كبرى تتميز كل منها بتنظيمات ومحددات اجتماعية أكثر تشابكا وتعقيدا من سابقاتها (3، ص86)، وتلك هي فكرة التطور ذو المراحل المعروفة (1)، التي جاء بها ابن خلدون والتي تمثل فرع من نظرية التطورية التاريخية، وقد قامت على استقراء معين لحوادث التاريخ والتحليل التاريخي لفترات التطور خاصة البعيدة منها، بالاعتماد على تصورات واستدلالات منطقية لمحاولة استخلاص قانون عام لتطور المجتمعات من خلال التحليل العقلي للبعد التاريخي، والتي تحمل مفهوم التغير،التقدم والتطور، باعتبارهم يعبرون عن "حركة الظاهرة المتغيرة أو المتطورة في اتجاه يختلف عن نقطة البدء" (3، ص85)، وهما لا يتطلبان تحديد الفترة التاريخية لقياس أبعادها خلالها بل التعرف على طبيعة ومستوى التجريد الثقافي المطبق في المجتمع ويعود الفضل لابن خلدون في فكرة التقدم أو التطور(5) من خلال البعد التاريخي أو بما يسمى" بالتطورية التاريخية " التي تحمل مفهوم التحول، التغير والتطور ثم

جاء بعده كل من فيكو، كوندرسي، أوغست كونت، كما تحمل أيضا مفهوم التغير الاجتماعي الذي يشير إلى أوضاع جديدة تطرأ على المجتمع من حيث بناءه، نظمه وعاداته، أو هو تحول جذري في جانب من جوانب الحياة الاجتماعية، إذ يقول: " تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأمصار ومرور الأيام " (8، ص 108).

ويمثل التغير الاجتماعي إطارا مرجعيا لمعظم المشكلات التي تحدث داخل المجتمع ، وإن كان هذا التغير ليس في كافة أجزاء المجتمع بنفس السرعة والدرجة والنوع وبنفس الاتجاه، فالجانب المادي من الثقافة الاجتماعية بتغير أسرع من الجانب المعنوي، هذا التفاوت يخلق مشكلات عديدة قبل أن تحدث التكيفات الاجتماعية (7، ص 29).

إن البحوث في مجال المشكلات الاجتماعية والتربوية تستفيد من نظرية التطور ذو المراحل المعروفة التي جاء به ابن خلدون بما تتضمنه من أجل التفسير السببي في دراسة هذه المشكلات، باعتبار كل مرحلة من مراحل التطور تعكس معرفة معينة ونضجا عقليا معينا وبالتالي قيام نظام اجتماعي معين، ووفقا لذلك يمكن وصف العوامل الإيجابية والسلبية في حياة الإنسان والمجتمع، وإن كانت هذه النظرية ترى " أن مشاكل المجتمع على اختلاف أنواعها هي مسألة ملازمة أو طبيعية، أي أن ظروف التطور تحمل بين ثناياها أنواعا من الاختلال " (3، ص127).

فالباحث في فهم المشكلات يحدد نقطة الصفر وهي النقطة التي حدث فيها التغير الاجتماعي ثم البحث عن فترات الاستقرار الاجتماعي التي سبقت حدوث التغير والظروف التي أدت إلى التفكك و بالتالي ظهور المشكلة.

إن النظر إلى العلية أو السببية الاجتماعية للمشكلات الاجتماعية يفترض معرفة أبعاد التطورية التاريخية للمشكلة وما أصاب من أسبابها من تغيرات أو تعديلات ، وكذا الأبعاد العامة والخاصة ، الظاهرة والمستترة ولتلك المشاكل، أي الوصول إلى تحليل سوسيولوجي دقيق لمدى الربط بين التغير والمشكلات الاجتماعية .

" إن مفهوم التغير هو الوحيد الذي يساعدنا على فهم العلاقة بين المشكلات الاجتماعية والتنظيم الاجتماعي (6، ص33)، كما أن تحليل التغير الاجتماعي يكون بالرجوع إلى مجموع العناصر التي تشمل الحقيقة الاجتماعية كما يقول جورج غورفيتش باعتبار موضوع علم الاجتماع هو الحقيقة الاجتماعية المأخوذة في كل أجزائها العميقة وهذا ما نراه من خلال تحليل وتفسير آراء ابن خلدون في التطور والتغير الذي يصيب أي مجتمع من المجتمعات على أساس أسباب سياسية، اقتصادية وأخلاقية هي ركيزة هذا التغير، على أساس ما تظهر عليه في الواقع و ما تتعدل به نتيجة الاصطدام بعدد من الظروف التي تغير من طبيعة الاستجابات الإنسانية، ويتوقف عمق التغير على مدى تكامل مكونات الطبيعة البشرية من ناحية و على أنماط السلوك الاجتماعية التي تهتم في بناء النظام والحفاظ عليه و في حراسته أثناء عمليات التغير الممتدة من ناحية أخرى، أي أن مكونات الطبيعة البشرية التي هي أيضا الأساس الذي يمكن أن يفسر مشاكل المجتمع، فالمشكلات التي تتفشى نتيجة التكيف أثناء التغير و التي تقوم على الفشل في التكيف، ويظهر ذلك من خلال تفسير ابن خلدون في انهيار الدولة، فالتحول من البداوة إلى الحضارة والتوترات الجماعية أو التفكك الذي يصيب المجتمع يعود إلى مبدأين:

المبدأ الأول: هو أن التحول من البداوة إلى الحضارة أو من مرحلة نشأة المجتمع حتى الجيل الثالث، هو تحول من العقلية والطبيعة النفسية الأولية القائمة على الخشونة والمثابرة والثقة في النفس إلى تحول العقلية الطبيعة النفسية الحضارية القائمة على الفردية والليونة والخوف.

المبدأ الثاني: هو أن تفكك المجتمع وانعدام المثابرة والمخاطرة التي يرى أنها تمثل التقدم أو الانتشار الحضاري، ترجع دائما إلى التفكك والتفسخ الذي يصيب الإنسان الذي يلبس ثوبا غير ثوبه، ويخلع جلده القديم ليرتدي جلد يناسب الحضارة في الأمصار المتحضرة.

فنشوء مشاكل المجتمع وتفاقمها يرجع إلى الاختلافات الفردية في مجال القدرات والإمكانيات والتصورات، والتي بتفاعلها مع الأوضاع الاجتماعية، تؤدي إلى ظهور مشاكل عديدة تبدأ من مشاكل التكيف إلى أن تتحول إلى مشاكل متصلة بأسس النظام الاجتماعي، ويكون الحال هو حول أساليب التنشئة الاجتماعية والظروف العقلية التي تؤدي إلى وضع قوالب معينة تنصب فيها استجابات الإنسان للأوضاع المتغيرة في المجتمع.

إن دراسة المشكلة الاجتماعية بمنهجية متكاملة يكون في العمق التاريخي لها، لأنها حصيلة مواقف سلوكية معينة تراكمت خلال فترات تاريخية متتالية، والتعرف على جذورها لإمكانية تقديم تفسير ملائم لواقعها الحالي، كما أن المشكلة الاجتماعية توجد في سياق معين وفي ظروف اجتماعية وثقافية محددة، إضافة على أن المشكلات الاجتماعية تنشأ عن الصعوبات التي تواجه الفرد في محاولة التكيف ومواجهة حاجات المجتمع المتغيرة، و إلى أسلوب التنظيم الاجتماعي وعجزه (6، ص33) .

خاتمة

بعد عرض مفهوم الحضارة عند بن خلدون وأبعاده نصل إلى خاتمة لنعطي من خلالها المعنى العام لهذه المداخلة.

إن الحضارة عند ابن خلدون لم تقتصر على البيئة فقط، كما جاءت به نظرية البيئة أو على الاقتصاد أو الدين، فنظريته كانت أقرب إلى النسبية من غيرها في طرح العناصر التي تشكل البناء الحضاري، وإن ينتقد في بعض مواقفه وآرائه عن الحضارة، لأن تجربته كانت تجربة واحدة متكررة هي تجربة الدولة الإسلامية .

كما أن عرض مسألة الخلدونية بروح موضوعية ودقة علمية وافية تكشف عن حقائق جديدة، إذ تستطيع منهجية الخلدونية أن تعالج المسائل العلمية بشكل كاف وتام بالاعتماد على البعد التاريخي الذي يشكل جزءا من المنهج التاريخي والذي

يعتبر من المداخل السوسيولوجية التي تهتم بدراسة المشكلات والقضايا الاجتماعية، منها على وجه الخصوص التغير، النمو، التخلف، حيث تشكل نظرية التطورية التاريخية الإطار النظري لذلك وكذلك الربط بين مشكلات المجتمعات المتقدمة و المجتمعات النامية من خلال الربط بين التغير الاجتماعي من واقع تأثر النظم الاجتماعية بالتكنولوجيا أو دراسة التخلف ثقافيا كان أو اجتماعيا من منطلق كونه سببا مرتبطا بحدوث المشكلات الاجتماعية وتطورها.

كما أن الدراسة السببية الاجتماعية لا يكون لها معنى دون البعد التاريخي أو البعد التطوري في مجال المشكلات الاجتماعية والتربوية، لأن المشكلة الاجتماعية تنشأ نتيجة قيام اختلال من واقع عوامل التطور داخلية كانت أو خارجية.

الهوامش والمراجع:

1 – أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي، دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.

2 – بن إبراهيم الطيب، مالك بن نبي وابن خلدون، مواقف وأفكار مشتركة، الجزائر، دار مدني للطبع، 2002.

3 – جبارة عطية جبارة، السيد عوض علي، المشكلات الاجتماعية، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2003.

4 – زكي ميلاد، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، دراسة تحليلية ونقدية، بيروت، دار الفكر المعاصر، 1998.

5 – عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986.

6 – علي عبد الرزاق جلبي، المشكلات الاجتماعية، دراسة معاصرة في (العنف الجريمة المنظمة)، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2005.

7 – معن خليل عمر، علم المشكلات الاجتماعية، بيروت، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2005.

8 – نور الدين حقيقي، الخلدونية، العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية، ترجمة إلياس خليل، وهران، المطبعة الجهوية، 1984.